بيئة البادية والغزل العذري

ظلت البادية تعيش في عزلة نسبية عن التيارات الحضارية التي كانت تتدفق حولها في مدن الحجاز وغيرها من الأقاليم الإسلامية، محتفظة بتقاليدها الاجتماعية القديمة ومثلها الخلقية الموروثة منذ العصر الجاهلي.

ومن بين المثل والتقاليد التي ظل مجتمع البادية حريصاً عليها وضع المرأة الاجتماعي ونظرة الرجل إليها. فقد ظلت المرأة في هذا المجتمع خاضعة للتقاليد الصارمة نفسها التي كانت مفروضة عليها منذ العصر الجاهلي، تقاليد المنعة والحجاب والرقابة والحراسة، ولم تتمتع بالحرية الاجتماعية التي تمتعت بها المرأة الحجازية.

وساعد على ذلك اختفاء طبقة الجواري الأجنبيات من هذا المجتمع، وهي الطبقة التي أثارت موجة اللهو والغزل اللاهي في نفوس شباب المدن، فلم يكن أمام شباب البادية إلا فتيات القبائل أو بنات العم، وبهذا ضاقت فرص اللهو أمامهم، وزاد من ذلك موقف الإسلام من مظاهر اللهو ومحاولته الجاهدة للقضاء عليها.

ومن الناحية الاقتصادية، ظل المجتمع البدوي مجتمعاً فقيراً يعتمد على الرعي وتسيطر على حياته الظروف الطبيعية، فظل يعاني من شظف العيش وقسوة الحياة وجدب البيئة.

وزاد من شدة الموقف أن السياسة الأموية لم تقف منه موقفها من مجتمع المدن الحجازية، فلم تعمل على إغراقه في «بحر الذهب» الذي أغرقت به المجتمع الحجازي، لأنها لم تكن تخشى من ناحيته على سلطانها السياسي، فلم تظهر فيه تلك الطبقات الثرية التي ظهرت في المجتمع الحجازي، فظل الحرمان هو السمة الغالبة على المجتمع البدوي.

في ظل هذه الظروف الاجتماعية انتشر هذا اللون من الحب الذي عرف باسم «الحب العذري» وهو حب وجد فيه شباب البادية متنفساً لهم يتخففون فيه مما يعانون من كبت وحرمان، ويعوضون به ما حرموا من وسائل اللهو دون المساس بالتقاليد البدوية الموروثة أو المساس بالأخلاق السامية التي عززها الدين.

كثر العشاق العذريون في هذه البيئة وعرف كل واحد منهم بمحبوبة له اقترن

اسمه باسمها: جميل بثينة، كثيّر عزة، قيس ليلى...

والصورة العامة لهذه القصص تتلخص في حب شاب من البادية لابنة عمه أو لفتاة من قبيلته أو قبيلة مجاورة، يبدأ هذا الحب في المراعي حيث يلتقي الفتيان والفتيات ويشتد تعلق العاشق بمحبوبته مع مرور الأيام، ولكن ظروفاً كثيرة تحول بين ارتباطهما الشرعي، فيشتد تعلق العاشق بمحبوبته وتزداد حيرته، وتحت وطأة الحرمان تتوالى سطور المأساة الحزينة حتى يخط الموت سطرها الأخير، ومن يتتبع قصص هؤلاء الشعراء وأحوالهم يدرك أن فشلهم لا يعود إلى أسباب دينية وخلقية بقدر ما يرجع إلى عوامل ترتبط بتقاليد المجتمع العربي وقيمه حينذاك فيما يتصل بعلاقة الرجل والمرأة. فنحن في كل قصة أمام عاشقين مخلصين يطمحان إلى أن يبلغ حبهما غايته المشروعة التي يقرّها الدين والمجتمع، ولكن المجتمع مع ذلك يلقي في طريقهما الشوك ويقيم السدود حتى ينتهي أمرهما إلى فرقة أبدية. فما يكاد حب الشاعر صاحبته يُعرف وشعره فيها يذيع بينهم حتى يناصبه أهلها العداء ويمنعوه عن بيوتهم ويتربصوا له أحياناً حتى يقتلوه، فلا ينجيه منهم إلا إشارة أو رسول من صاحبته، كالذي يروى عن توبة بن الحميّر إذ جاء يسعى للقاء ليلى الأخيلية وعلم أهلها بمجيئه فمكثوا له في الموضع الذي كان يلقاها فيه، فلما علمت به خرجت سافرة حتى جلست في طريقه، فلما رآها سافرة فطن لما أرادت واستمر في طريقه وذلك قوله:

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها

وكالذي يروى عن جميل وترصد أهل بثينة له ليقتلوه، وقوله في ذلك مقالة فارس يجمع إلى صدق الحب بسالة الفروسية:

فليت رجالاً فيك قد نذروا دمي وهمّوا بقتلي يا بثين لقوني

إذا ما رأوني طالعاً من ثنية يقولون: من هذا؟ وقد عرفوني

نحن إذن أمام مجتمع شديد «المحافظة» تتحجب فيه المرأة عن الرجل وتلقي على وجهها برقعاً إذا لقيت رجلاً من غير أهلها، ويضطر فيها المحبون إلى أن يظهروا غير ما يبطنون ويبدون البغضاء لمن يحبون حتى يجنبوا أنفسهم عداء الأهل والناس:

كلانا مظهر للناس بغضاً وكل عند صاحبه مكين

وهو مجتمع تجري حياة المحبين فيه على تقاليد خاصة مرعية، فما ينبغي لمن يحب أن يذيع أمره بين الناس ولا أن يقول شعراً في صاحبته يشيع بينهم، وإلا كان قد ألحق العار بصاحبته وأهلها وقبيلتها جميعاً، وحق عليه أن يحرم منها إلى الأبد وأن يستباح دمه إذا هو تعرض لها بعد ذلك، ولم يكن الشاعر ليعترف بمثل تلك القيود الاجتماعية الصارمة فهو ليس عاشقاً فحسب، ولكنه شاعر في المقام الأول يستمد من حبه وحي موهبته، ثم من حرمانه وقوداً متجدداً لها. وهكذا تقوم بينه وبين المجتمع خصومة تدور على المواجهة والتحدي، يستعين المجتمع فيها بالسلطان، ويحتمي فيها المحب بالشعر معتزاً بما يرى أهل صاحبته أنه قد جلب العار عليهم:

أناسية عفراءُ ذكري بعدما تركت لها ذكراً بكل مكان

من هنا كان فشل الشعراء في حبهم برغم تقواهم، وبرغم كل الظروف المهيئة للنجاح، وليس غريباً أن تطالعنا وجوه الرقباء والواشين الموكلين بتعقب هؤلاء المحبين، في كثير من قصائد الشعر العذري ومقطوعاته، بعد أن كنا لا نصادفها إلا لماماً في الشعر الجاهلي.

– وقالوا: لو تشاء سلوتَ عنها فقلت لهم: فإني لا أشاء
لها حب تنشأ في فؤادي فليس له وإن زُجر انتهاء
وعاذلة تقطّعني ملاماً وفي زجر العواذل لي بلاء

– أُبعِّد عنك النفس، والنفس صَبَّة بذكرك والممشى إليك قريب
مخافة أن تسعى الوشاة بظنة وأكرمكم أن يستريب مريب

– لعمر أبيها إنها لبخيلة ومن قول واش إنها لغضوب

– يقول لي الواشون إذ يرصدونني ومنهم علينا أعين ورُصود
سلا كل صبّ حبه وخليله وأنت لليلى عاشق وودود

– وماذا عسى الواشون أن يتقولوا سوى أن يقولوا إنني لك عاشق

نعم صدق الواشون أنت حبيبة إليّ وإن لم تصف منك الخلائق